الثائر

أبو ذر الغفاري

رضي الله عنه

أحيانا يوازي احتياجنا للثورة .. احتياجنا للحياة !

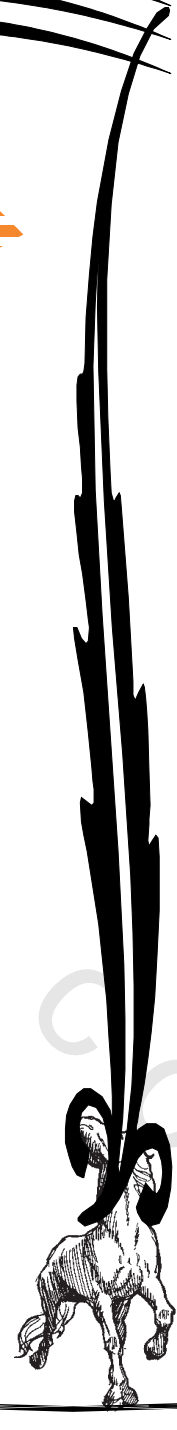

obeikandl.com

« أهذا فقط ما استطعت أن تعرفه عن الرجل يا أنيس؟! ».

هتف بها أبو ذر في انفعال واستنكار واضحين لأخيه أنيس، الذي بدا عليه الحرج والضيق قائلا:

– قلت لك: إنه رجل يدعو إلى مكارم الأخلاق، ويقول كلاما ما هو بالشعر.. ماذا تريد أكثر من ذلك ؟

لاحقه أبو ذر وهو لازال على انفعاله:

– أريد أن أتأكد من نبوته التي يزعمها .. ما الجديد في أن يدعو رجل إلى مكارم الأخلاق ؟!

وتابع وقد انقبضت ملامحه في ضيق شديد:

– أريد أن أخرج من هذا المستنقع.

تساءل أنيس متعجبا:

– مستنقع ؟! أي مستنقع ؟!

التفت إليه أبو ذر في حدة وهو يصيح في انفعال:

– المستنقع الذي نعيش فيه يا أنيس، هجوم على القبائل، سرقتهم، قتلهم إذا استلزم الأمر، إجرام يومي، حجارة نتعبد لها ونقدم لها قرابين لتساعدنا وتعفو عنا !!

خفض أنيس رأسه.. وقبل أن يهم بالكلام، لاحقه أبو ذر في إصرار:

– اسمع يا أنيس، سأذهب أنا بنفسي، لأرى الرجل وأعرف الحقيقة.

وفي اليوم التالي كان أبو ذر قد أعد العدة لرحلته إلى مكة..

رحلة المصير..

والقرار الخطير.

* * *

« أغريب أنت ؟!»

نطق بها علي بن أبي طالب لأبي ذر، وقد رآه نائما بجوار الكعبة، فقال له أبو ذر وهو يعتدل من نومته:

– نعم.. يا أخا العرب.. غريب.

وبدون أن يكثر «على » الأسئلة عليه، وبدون أن يصرح أبو ذر بسبب مجيئه إلى مكة للبحث عن الرسول ﷺ، دعاه «علي» إلى بيته، ليمكث أبو ذر في منزل «علي» طيلة الليل..

وفي الصباح.. يخرج أبو ذر للبحث عن الرسول ﷺ في سرية تامة، دون أن يسأل أحدا، وبعد عناء يوم كامل في البحث يذهب إلى الكعبة لينام، فيراه علي ليدعوه مرة أخرى للمبيت في منزله مرة أخرى.

ويتكرر في اليوم الثالث ما حدث في اليومين السابقين.

إلا أن عليا لم يسكت هذه المرة، فأراد أن يعرف ماذا يريد أبو ذر، فسأله متلطفا:

- يا رجل.. ما الذي أقدمك إلى هنا؟

كان أبو ذر قد اطمأن إلى «علي»، وكان قد أجهد من البحث دون سؤال، فقرر أن يخبر «عليا» ليساعده في البحث عن الرسول ﷺ، فنظر إليه قائلا:

- إن أعطيتني عهدا وميثاقا لترشدني لفعلت .

نظر إليه علي مبتسما وهو يقول في حزم:

- أعطيك عهدا بذلك.

قال أبو ذر في تردد:

- إني أبحث عن رجل يدعى محمدا، يزعم أنه رسول من الله.

تهلل وجه علي وقال في سرور ويقين:

- إنه حق، وإنه رسول الله.

وتابع علي في لهفة:

- إذا أصبحت فاتبعني، فإني إن رأيت شيئا أخاف عليك منه؛ قمت كأنني أريق الماء، فإن أمضيت، فاتبعني حتى تدخل مدخلي.

ونفذ علي وأبو ذر ما اتفقا عليه بدقة ، وسار علي ووراءه أبو ذر يتبعه، بصورة لا تلفت النظر ولا تثير الشكوك.

ويقترب علي أكثر وأكثر من مكان الرسول ﷺ..

ويقترب أبو ذر معه - بعد عناء ثلاثة أيام متواصلة - من اللقاء المنتظر..

والمرتقب.

* * *

« أخيرا وجدتك ».

هتف بها أبو ذر في فرح وهو يتنهد، بعد أن أرشده علي بن أبي طالب إلى رسول الله ﷺ، وتابع قائلا:

- أبحث عنك منذ ثلاثة أيام.

obeikandl.com

رحب به الرسول ﷺ وقال له في ابتسامة لطيفة:

«من أنت يا أخا العرب؟» .

قال أبو ذر في لهفة:

– جندب بن جنادة، سمعت عنك وجئت لأسمع منك.. أنشدني مما تقول.

لاحقه الرسول الكريم ﷺ قائلا:

« ما هو بشعر فأنشدك، ولكنه قرآن كريم ».

قال أبو ذر:

– إذن.. فاقرأ علي.

وأخذ الرسول ﷺ يتلو آيات القرآن الكريم، وأبو ذر يستمع ويتأثر قلبه ، وتتغير ملامحه، ويشعر أنه يقترب أكثر وأكثر مما يريد..

* * *

عانى أبو ذر كثيرا من تصرفات قبيلته..

كان يشعر بالخزي من قطعهم الطريق على القوافل التجارية ، ومن إهانة العقل من عبادتهم لحجارة صماء لا تضر ولا تنفع..

كان يشعر بثورة داخلية على الباطل الذي يراه كل يوم.

كان يرى أن ما يدور حوله من أحداث لابد أن يتغير..

حتى سمع عن الرسول ﷺ..

وشعر أن ما جاء به هو ما أراده..

ما أراده بالتحديد..

عبادة إله واحد..خالق الكون رب الأرض والسماء..

وعندما سمع القرآن، تيقن أنه وجد ما أراده..

وفور انتهاء الرسول ﷺ من تلاوته..

كان القرار سريعا وحاسما..

انتفض أبو ذر وهو يهتف في حسم:

– أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

الآن.. أصبح أبو ذر الرجل الغريب، من أوائل من أسلموا في ظل الدعوة السرية..

الآن أصبح أبو ذر من حملة الرسالات..

وهنا أراد الرسول ﷺ أن يتعرف على هوية رجل جديد، انضم حديثا لكتيبة الحق وقافلة المجاهدين ، فقال له:

«ممن أنت ؟».

أجاب أبو ذر وهو يطأطئ رأسه:

- من قبيلة غفار.

سلط الرسولﷺ بصره على وجه أبي ذر وقد اكتسى وجهه بالدهشة والعجب وهو يقول:

« إن الله يهدي من يشاء».

لم يجد الرسول ﷺ تفسيرا لأن يسلم رجل ليس من أهل مكة، تحمل عناء السفر وثلاثة أيام من البحث المتواصل من أجل أن يراه، وعندما قابله إذا بالإيمان يدخل قلبه بعد دقائق، كل هذا وهو من قبيلة معروفة جيدا بقطع الطريق.

لم يجد الرسول ﷺ تفسيرا لذلك، إلا بأن الله يهدي من يشاء..

إلا أن الإيمان قد بدأ يدب في قلب أبي ذر، وتحول فورا إلى حماس من أجل العمل، فقال أبو ذر للرسول ﷺ في حماس واضح:

- يا رسول الله.. بما تأمرني ؟

أجابه الرسول ﷺ:

«ترجع إلى قومك حتى يبلغك أمري ».

لكن أبا ذر كان مشحونا بثورة داخلية أراد لها أن تخرج، فصاح بصوت عال:

- والذي نفسي بيده، لا أرجع حتى أصرخ بالإسلام في المسجد !!

لم يكن طبيعيا أن يجهر أحد من المسلمين بإسلامه في هذا التوقيت، فطبيعة المرحلة لم تكن تتطلب ذلك، إلا أن شخصية أبي ذر التي لم تكن تعرف الخوف يوما، والتي لا تتوقف كثيرا أمام حسابات ردود الأفعال من الآخرين، دفعته أن يجاهر بإسلامه بصورة استفزت المشركين حول الكعبة، حيث وقف ونادى بأعلى صوته قائلا:

- أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

وبسرعة البرق، التف الناس حول أبي ذر، وأخذ يتلقى اللكمات والصفعات من كل اتجاه حتى أغشي عليه.

وكان من الممكن أن يستمر ضربهم له حتى يردوه قتيلا، إلا أن مرور العباس عم النبي ﷺ في هذا التوقيت أنقذه بالفعل؛ فما إن رأى العباس ما يجري، حتى سأل وعرف، وبحيلة ذكية.. استطاع أن ينقذ أبا ذر من براثن المشركين، فوقف ينادي فيهم:

- يا معشر قريش، أنتم تجار وطريقكم على غفار، وهذا رجل من رجالها، إن يحرض قومه عليكم، يقطعوا على قوافلكم الطريق.

كانت الحيلة ذكية والحديث مقنعا.. فمنطق المصلحة هو المنطق الأكثر تأثيرا عند قريش.

وتركه الناس بالفعل..

إلا أن ثورة أبي ذر لم تهدأ بعد، ومرحلة الدعوة السرية لا يبدوأنها تتفق أبدا مع شخصيته الجهورة الشجاعة التي لم تعرف الحسابات بعد..

ففى اليوم التالى.. وجد أبو ذر امرأتين تطوفان بصنمين وتدعوانهما، فإذا به يقف لهما ويسفه الصنمين تسفيها عظيما..

وتصرخ المرأتان تستنجدان بالرجال..

وفي لحظة.. يتكاثر عليه الرجال من كل اتجاه كالجراد، وينهالوا عليه ضربا حتى أغمي عليه. وعندما أفاق.. نطق بكلمات يعلن بها التحدي من جديد:

- أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله !!

وهنا.. يتدخل الرسول ﷺ بقوة، ويأمر أبا ذر بشدة هذه المرة أن يعود إلى قومه، وأن يستغل قدرته الكبير وحماسه الكبير للإسلام في دعوته لقبيلته غفار.

ويعود أبو ذر إلى بلده..

لم يكن يشغله ما بجسده من جروح وكدمات..

كان يشغله أمر واحد فقط..

كيف يحول قطاع طرق محترفي الإجرام، إلى أناس يبيعون الدنيا ليشتروا الآخرة؟!

ولقد كانت مهمة صعبة بالفعل.. بل مهمة أقرب إلى المستحيل.

* * *

يا لها من مهمة تلك التي يقدم عليها أبو ذر...

يريد أن يدعو أناسا عاشوا حياتهم ينهبون الناس - إلى الإسلام!!

إن الأمر يحتاج إلى شخصية رجل جريء يشتعل حماسة وإيمانا بالفكرة، وقدرة على التحمل والصبر لا مثيل لها..

ولقد كان أبو ذر ذلك الرجل..

ظل أبو ذر يدعو قومه إلى الإسلام، لم ييأس ولم يختلق لنفسه الأعذار، ولم يتعلل بأن قومه قد أجهدوه..

كان أبو ذر يراها معركة لابد أن تنتهي بالنصر..

كان يدير معركته مع قبيلته غفار، في الوقت ذاته الذي كان رسوله محمد ﷺ يدير معركته الشرسة مع قبيلته قريش..

وبعد ثلاثة عشر عاما من المشقة والجهاد والصبر والتحدي، يهاجر الرسول ﷺ والمسلمون إلى المدينة، وينجح في تأسيس دولة إسلامية مستقرة، بعد أن خاض مع المشركين ثلاث معارك ضارية.. بدر وأحد والأحزاب.

وفي غفار.. ينجح أبو ذر نجاحا مبهرا غير متوقع مع قبيلته غفار.. فتسلم كلها..

ليس هذا فحسب.. بل ينتشر الخبر إلى قبيلة مجاورة اسمها «أسلم»، فتسلم هي الأخرى..

وفي هذه اللحظة..يقرر أبو ذر مع قبيلته غفار ومع قبيلة أسلم أن يهاجروا إلى المدينة..

وتزحف القبيلتان إلى المدينة في مشهد رائع، ويستقبلهم الرسول ﷺ استقبالا حافلا وهو يقول في سرور بالغ:

«غفار غفر الله لها.. وأسلم سالمها الله».

لقد نجح أبو ذر في مهمته مع قبيلته.. والآن هو على أتم الاستعداد لأن يحمل الرسالة مع نبيه ﷺ ويكمل الطريق..

ومن نصر الحديبية السياسي إلى نصر مؤتة العسكري إلى درس حنين، يسير أبو ذر بخطوات واثقة وعزم لا يلين.

وفي غزوة تبوك.. ظن البعض أن أبا ذر كان من المتخاذلين الذين آثروا الدنيا على الآخرة والراحة على الجهاد في سبيل الله..

ولكن ما هي إلا ساعات، حتى يثبت أبو ذر للجميع أنه لم ولن يكون ذلك الرجل.

ففى السنة التاسعة للهجرة، كان المسلمون على موعد مع معركة شديدة الصعوبة والخطورة مع القوة العظمى في العالم..الروم.

حتى إن بعض قبائل العرب والمنافقين في المدينة ظنوا أنها نهاية المسلمين.

وتخلف المنافقون وبعض المسلمين بأعذار واهية أو دون أعذار!!

وفي طريق المعركة الشاق، وفي قيظ الحر الشديد، يذهب بعض الصحابة يقولون للنبي ﷺ في عجب:

- يا رسول الله..لقد تخلف فلان !

ويجيب النبي ﷺ في حزن مكتوم:

«دعوه.. فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه».

ويتلفت المسلمون فلا يجدون أبا ذر معهم..ويندهش المسلمون ويذهبون إلى الرسول ﷺ ليخبروه..

وهنا.. شعر الرسول ﷺ أن شيئا ما خطأ قد حدث، أو أن مشكلة قد أعاقت أبا ذر فأخرته عن اللحاق بهم..

أو هكذا تمنى ذلك!

ولكنه لم يجد بدا من أن يعيد ما قاله:

« دعوه.. فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم.. وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه».

إلا أن ثقة الرسول ﷺ في أبي ذر، كانت تمنعه من أن يصدق أن أبا ذر سيتخلف عن المعركة حتى ولو تخلف آخرون..

ولقد كان ظن الرسول ﷺ في محله..

فلقد تعثرت بعير أبي ذر، فأبطأت به بطئا شديدا جعلته يتأخر بمسافة كبيرة، ولم يجد أبو ذر بعدها بدا من أن يترك بعيره ويحمل زاده على كتفيه ويسير مسرعا ليلحق بالجيش..

وبينما يعسكر المسلمون ليستريحوا، إذا بهم يلمحون سحابة من غبار تخفي وراءها شبح رجل، وبمجرد أن يخبروا الرسول ﷺ، فإذا به يلتفت إليه بسرعة ويقول بلهفة:

«كن أبا ذر ».

نعم..لم يكن الرسول ﷺ مصدقا أن يتخلف أبو ذر.. جرأته وشجاعته وصدقه وتاريخه.. كل هؤلاء يمنعونه من أن يتخلف عن جهاد به رسول الله ﷺ..

ولقد كان بالفعل..أبو ذر.

فما إن اقترب منهم حتى صاح أحدهم:

- يا رسول الله.. إنه أبو ذر الغفاري.

ويتألق وجه الرسول ﷺ ويقول في ابتسامة حانية:

« يرحم الله أبا ذر.. يمشي وحده.. ويموت وحده.. ويبعث وحده».

نعم.. لم يخيب أبو ذر ظن الرسول ﷺ.. وكان على العهد دوما، لم ينقضه ولم يفكر يوما في نقضه.

ويستمر أبو ذر على حماسه وصدقه حتى يشهد له الرسول ﷺ شهادة يفخر بها إلى يوم القيامة:

« ما أقلت الغبراء، ولا أظلت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر!».

لقد شهد الرسول ﷺ لأبي ذر بالصدق مع الناس ومع النفس..

كان طبيعيا أن ينسجم الصدق مع الشجاعة، فكلاهما لا يعرف الخوف، ولا يضع حسابات للوم والمخاطر..

وكان طبيعيا أن تجعل هاتان الصفتان من أبي ذر شخصية ناقدة ربما وصلت إلى حد العنف

في نقدها..

ولقد لاحظ الرسول ﷺ ذلك، وربط ذلك بموقفه في مكة عند إسلامه..

ولاحظ أيضا أن أبا ذر لديه حساسية بالغة من التكالب على الأموال والمغانم والتلهف على تحصيلها ، وهنا أراد الرسول ﷺ أن يوجه أبا ذر توجيها يضبط سلوكه عند حدوث صدام متوقع في المستقبل...

فقال له الرسول ﷺ يوما في لطف وهو يسأله:

« يا أبا ذر.. كيف أنت إذا أدركك أمراء يستأثرون بالفيء؟».

فأجاب في حسم قائلا :

- إذن والذي بعثك بالحق، لأضربن بسيفي.

فقال له الرسول ﷺ:

«أفلا أدلك على خير من ذلك؟..اصبر حتى تلقاني!».

لقد توقع الرسول ﷺ لأبي ذر صداما من نوع خاص مع أصحاب الثروات والنفوذ في المستقبل، وتوقع له الرسول ﷺ أيضا أن يكون وحيدا في هذا الصدام.

وبالفعل.. يقف أبو ذر وحيدا يواجه الجميع في صراع عنيف..

صراع الثروة والأمراء.

* * *

في السنة الحادية عشرة من الهجرة كان الرسول ﷺ على موعد مع ربه..

بعدها لم يتحمل أبو ذر كعدد من الصحابة ، أن يمكثوا في المدينة بعد وفاة الرسول ﷺ، ليستأذن الخليفة أبا بكر أن يرحل إلى الشام.. فأذن له.

وفي عهد الخليفة أبو بكر وعمر مرت الأمور بصورة لم ير أبو ذر أنها تستدعى تدخلا منه، وخاصة في عهد عمر بن الخطاب، الذي كان ينظم حركة مراقبة مالية شديدة على الأمراء والولاة، تمنعهم من أن يفكروا مجرد تفكير في استغلال النفوذ لكسب المال وزيادة الثروة.

إن واليا من ولاته في العراق أو في الشام أو في صنعاء، أو في أي من البلاد النائية البعيدة، لا يكاد يصل إليه نوعا من الحلوى لا يجد عامة الناس قدرة على شرائه، حتى يكون الخبر قد وصل إلى عمر بعد أيام، وحتى تكون أوامره الصارمة قد ذهبت لتستدعي ذلك الوالي إلى المدينة ليلقى حسابه العسير..!!

والآن.. جاء الخليفة عثمان بن عفان..

ومع مجيئه.. بدأت المشكلات تظهر نتيجة لاعتراض الناس على تعيين أقربائه من بني أمية

أمراء على البلاد، وبدأ أبو ذر يشعر أن استغلال النفوذ قد بدأ يظهر في بعض البلاد، وأن الثروات بدأت تتضاعف من وراء السلطة.

فقرر أن يبدأ المعركة.

وكانت أولى معاركه وأشرسها.. معركته مع معاوية بن أبي سفيان في الشام.

كان الوضع في الشام مقلقا لأبي ذر إلى أقصى درجة..

معاوية بن أبي سفيان يحكم أرضا من أكثر بلاد الإسلام غنى ورخاء، والأموال توزع بدون حساب لأصحاب الحظ والمكانة..

كان أبو ذر يتحسس العدل في توزيع الأموال وتقسيم الثروات فلا يجده.. كان يتحسس الحكمة في صرف أموال طائلة فلا يجدها.. كان يرى القصور قد شيدت والضياع الواسعة قد ترامت..

كان أبو ذر يشعر بالخطر..

خطر فتنة المال على الأمراء، وخطر السلطة والنفوذ على الورع والتقوى..

فقرر أن يتصدى..

وبقوة.

وأخذ أبو ذر يعارض معاوية معارضة شديدة في جموع الناس.. وأخذ يردد:

– بشر الكنازين الذين يكنزون الذهب والفضة بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم يوم القيامة!

حمل أبو ذر الراية في كل مكان بالشام، وقام بحملة إعلامية رهيبة على معاوية، حتى إنه كان يقف أمام الناس ويسأل معاوية عن ثروته قبل أن يكون حاكما، وعن مقدار ثروته الآن..

نظرته للفقراء والأغنياء وشعوره بأن هناك ظلما ما يقع، وأن طبقة قد بدأت تظهر بين المسلمين لصالح أصحاب النفوذ والسلطة، تجعله يصرخ في المتجمعين حوله قائلا:

– عجبت لمن لا يجد القوت في بيته، كيف لا يخرج على الناس شاهرا سيفه؟!

وانتشرت دعوة أبي ذر في الشام انتشارا رهيبا ، جعلت الناس على استعداد للقيام بثورة، إذا أشار لهم أبو ذر بإصبعه..

إلا أن أبا ذر كان على العهد.. وافيا للرسول ﷺ ونصيحته..

«اصبر حتى تلقاني ».

لقد أصر أبو ذر على التغيير السلمى، وكان ضد أحداث فتنة تودي بحضارة المسلمين،كان أبو ذر يريد الإصلاح.. لا التخريب والتقتيل.. يريد ألا يترك المسلمون رسالتهم فتفتنهم الدنيا

ويهرعون وراء نعيم زائل.

وأبدا لم يكن يريد زعامة أو سلطة.

كان أبو ذر واضحا وصريحا وصادقا في دعوته إلى أبعد الحدود؛ لذا.. صدقه الناس واتبعوه، حتى ضاق معاوية ذرعا بأفعال أبي ذر، وشعر أن معارضته الشديدة له، قد تسبب ضرب الاستقرار بحكم الشام، فما كان منه إلا أن أرسل إلى الخليفة عثمان بن عفان شاكيا :

- يا أمير المؤمنين.. إن أبا ذر قد أفسد الناس بالشام.

ويكتب الخليفة عثمان لأبي ذر يستدعيه إلى المدينة، ويودع أبو ذر دمشق في يوم وداع لم تشهد له دمشق مثيلا..

ويذهب إلى المدينة.. حيث الخليفة عثمان..

وهناك.. يدور بينهما حوار طويل..

وخطير..

* * *

« لا حاجة لي في دنياكم يا أمير المؤمنين ».

نطق بها أبو ذر في أسى بعد حوار طويل مع الخليفة عثمان بن عفان، انتهى بعرض عثمان على أبي ذر أن يبقى بالمدينة قائلا له:

- ابق هنا بجانبي، تغدو عليك اللقاح وتروح.

شعر أبو ذر أن العرض يتضمن مراقبة أبي ذر لتحجيم دعوته، فرفض، واستأذن الخليفة أن يذهب إلى مكان يسمى الربذة، فأذن له الخليفة ..

وهناك.. جاءه وفد من الكوفة ليطلبوا منه ما لم يتوقعه ولم يرده..

لقد جاء إليه الوفد يطلب منه الثورة والانقلاب على الخليفة عثمان بن عفان..

إلا أن أبا ذر ما كاد يسمع ذلك، حتى انتفض وقال بصوت عال وبلهجة حاسمة:

- والله لوأن عثمان صلبنى على أطول خشبة لسمعت وأطعت، وصبرت واحتسبت، ورأيت ذلك خيرا لي، ولو سيرني ما بين الأفق إلى الأفق لسمعت وأطعت، وصبرت واحتسبت، ورأيت ذلك خيرا لي، ولو ردني إلى منزلي لسمعت وأطعت، وصبرت واحتسبت، ورأيت ذلك خيرا لي!.

انتهت الرسالة..

ليس أبو ذر الذي يريد الفتنة ويشجع القتال ويشيع الفوضى..

أبو ذر معارض سلمي لا يرفع السلاح على مسلم..

على العهد يا أبا ذر..على العهد..

obeikandl.com

أبو ذر ناقد معارض، لكنه صادق مخلص متواضع .

كان يخشى على الصحابة المال، إلى درجة جعلته يتمنى ألا يتولوا إمارة ولا يجمعوا ثروة..

كان يحبهم حبا جعله يخشى عليهم الدنيا وفتنتها والمال وافتراسه للبشر..وكان يقول:

– إنها أمانة، وأنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها.

ربما كان أبو ذر مبالغا في خوفه بعض الشيء..ولقد بلغ من مبالغته تلك أنه قاطع بعض إخوانه من الصحابة !

لقيه أبو موسى الأشعري يوما، فلم يكد يراه حتى فتح له ذراعيه وهو يصيح من الفرح بلقائه:

– مرحبا أبا ذر.. مرحبا بأخي.

لكن أبا ذر دفعه عنه وهو يقول:

– لست بأخيك، إنما كنت أخاك قبل أن تكون واليا وأميرا!.

ولقيه أبو هريرة يوما واحتضنه مرحبا، ولكن أبا ذر نحاه عنه بيده وقال له:

– إليك عني.. ألست الذي وليت الإمارة، فتطاولت في البنيان، واتخذت لك ماشية وزرعا ؟

ومضى أبو هريرة يدافع عن نفسه ويبرئها من تلك الشائعات..

بالفعل كان الأمر مبالغة من أبي ذر، من حق الغير أن يختلفوا معه من أجلها..

إلا أن هذا كان رأيه.. وكانت تلك رؤيته..

كان أبو ذر يدرك خطورة الوصول إلى الثروة عن طريق الحكم، وخطورة أن ينفصل الحاكم بثرائه وماله وقصوره عن حياة الناس ومعاناتهم، وخطورة أن يتعود المجاهدون على الرخاء والدعة فيتكاسلون عن أداء الرسالة من أجلها .

كان أبو ذر يخشى أن يتسلل شبح حب الدنيا إلى من تولوا الحكم، فتمنى لو لم تكن لديهم إمارة ولا حكم..

وكان طبيعيا بعد ذلك أن يرفض إمارة العراق عند عرضها عليه قائلا:

– لا والله.. لن تميلوا علي بدنياكم أبدا.

قد نختلف معه في رأيه..لكنه بالتأكيد كان صادقا لا يبغي من ذلك إلا وجه الله..

وظل أبو ذر بقية حياته يراقب الحكام وتصرفاتهم ويعارضهم، طالما وجد خللا أو قصورا.

في نفس الوقت الذي عاش فيه زاهدا يكفيه أقل القليل، وهو ينظر لآخرته طوال الوقت..

ورآه صاحبه يوما يلبس جلبابا قديما فسأله:

– أليس لك ثوب غير هذا ؟! لقد رأيت معك منذ أيام ثوبين جديدين..؟

فأجابه أبو ذر:

- يا ابن أخي.. لقد أعطيتهما إلى من هوأحوج إليهما مني !

قال له متعجبا:

- والله إنك لمحتاج إليهما!

فأجاب أبو ذر:

- اللهم اغفر.. إنك لمعظم للدنيا، ألست ترى على هذه البردة..؟ ولي أخرى لصلاة الجمعة، ولي عنزة أحلبها، وأتان أركبها، فأي نعمة أفضل مما نحن فيه؟!

وجلس يوما يحدث ويقول:

- أوصاني خليلي بسبع: أمرني بحب المساكين والدنو منهم..وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني، ولا أنظر إلى من هو فوقي..وأمرني ألا أسأل أحدا شيئا.. وأمرني أن أصل الرحم..وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرا.. وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم..وأمرني أن أكثر من: لا حول ولا قوة إلا بالله.

وفي الربذة.. اقتربت ثورة أبي ذر من نهايتها.. واقتربت منه سكرات الموت تستعجله.. وجلست زوجته تبكي بجانبه وهو يقول لها:

- لا تبكي.. فإني سمعت رسول الله ﷺ ذات يوم وأنا عنده في نفر من أصحابه يقول:

«ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض، تشهده عصابة من المؤمنين».. وكل من كان معي في ذلك المجلس مات في جماعة أو قرية، ولم يبق منهم غيري.. وها أنا ذا بالفلاة أموت، فراقبي الطريق، فستطلع علينا عصابة من المؤمنين، فإني والله ما كذبت ولا كذبت.

ويموت أبو ذر..

وتهدأ ثورته تماما..

وكما تنبأ له الرسول ﷺ..تمر قافلة على رأسها عبد الله بن مسعود، ويرى ابن مسعود المشهد.. جثمان لرجل بجانبه زوجته تبكي..ويتجه ابن مسعود إليه ولا تكاد تقع عيناه عليه حتى يعرفه..

إنه أبو ذر .

عندها.. لم يتمالك ابن مسعود نفسه من البكاء.. ورنت في أذنيه كلمة الرسول ﷺ أيام تبوك..

«رحم الله أبا ذر يمشي وحده.. ويموت وحده..ويبعث وحده».

لا تحزن بعد اليوم يا أبا ذر إذا كانت قد كتبت عليك الوحدة في الدنيا..

فلن تكتب عليك- حتما- في الآخرة.

تحليل ودروس

١- أى إنسان له رغبة داخلية للتغيير نحوالأفضل (أبو ذر الغفاري غير راض عن نفسه وقبيلته، ويريد أن يغير نفسه للأفضل) .

أي إنسان.. مهما ارتكب من معاصى، ومهما أجبرته الظروف على التواجد في بيئة سيئة تؤثر في أخلاقه وتصرفاته بصورة سلبية، فإن رغبة دفينة تكون بداخله كفيلة لتحسين صورته أمام نفسه وأمام الناس وأمام الله، وتستمر هذه الرغبة دفينة لا تخرج، إلى أن تتاح لها الفرصة المناسبة للخروج إلى حيز التنفيذ، والتى تختلف من شخص إلى آخر حسب قوة إرادته واستغلال الفرص المتاحة أمامه للتوبة والتطهر، والله يتيح للإنسان فرصا عديدة للتغيير خلال حياته، فإن لم يستغلها تتقلص فرصه في التوبة، ويدخل في مراحل صعبة من الغرق في الذنوب، بصورة تبعد عنه أطواق النجاة التي كانت مترامية أمامه قبل ذلك.

٢- الاندفاع فى المشاعر بعد النجاح في التغيير قد يؤدي إلى أضرار بالغة (أبو ذر الغفاري يندفع ليعلن إسلامه أمام قريش).

كثيرا ما ينقلب حديث التدين على المجتمع انقلابا مفزعا ومقلقا ، يسبب ارتباكا غير عادي لحياته وحياة من حوله، فحديث التدين يدفعه حماسه إلى مهاجمة كل من حوله فجأة دون تريث أو تدرج أو محاولة كسب ودهم والدخول بهدوء بعد ذلك في حياتهم من أجل النصح، ومن ثم القدرة على التعايش مع المجتمع رغم الاختلاف الفكري والسلوكى الذي حدث، وهذا الانقلاب يؤدي إلى نشر بذور مشاعر الغضب والعداوة والاستهزاء، وربما يسبب الفتنة للشخص الملتزم نفسه بعد فترة.

ينبغى أن يتفاعل الملتزم بعد التزامه مع مجتمعه بهدوء وتدرج،خاصة في أسرته، بعدها سيعي الجميع ذلك التغير لتسير الأمور دون مشكلات كبرى.

٣- التوبة تحتاج إلى مشقة حتى يعلم الله صدق نيتك (أبو ذر الغفاري يتعرض للأذى بعد إسلامه مباشرة) .

الصدق في التوبة يتطلب مشقة وعدة محاولات، والذي يتوب لا يمن الله عليه بالتوبة حتى لا يتذمر من تعرضه لمشكلة أو موقف صعب أو ضرر في بداية توبته، إن الله يريد بذلك أن يعلم صدق نية التائب في الرجوع إليه، فيختبر قوة إصراره على التوبة، وعند نجاحه يكون أكثر قدرة على الصمود في وجه الفتن التي تريد أن تعيده مرة أخرى إلى المعصية.

إن طريق التوبة الطبيعي، هوالذي يتعرض فيه التائب لبعض المشقة والضرر في بدايته.

٤- انتشار الجريمة وضعف الأمان في المجتمع، يجعل مساحة الأخلاق تتآكل يوما بعد يوم (علي بن أبي طالب يؤوي أبا ذر يومين دون أن يعرفه).

إقدام علي بن أبي طالب على استضافة أبي ذر دون أن يعرفه أو يعرف ماذا يريد ، يدل على درجة الأمان في المجتمع والثقة في الغريب والاطمئنان بأنه في حاجة فعلا للمساعدة، على عكس ما يحدث الآن تماما، فالغريب أصبح متهما بالدرجة الأولى بالنصب والاحتيال وتأليف القصص والحكايات الكاذبة التي يستعطف بها الناس لاجتذاب أموالهم بعمليات نصب مقنعة، مما دفع الناس إلى عدم مساعدة الغريب، والمشكلة الأكبر أنه يتصادف بين هؤلاء، وجود الشخص المحتاج بالفعل.

إن غياب العدل في المجتمعات وسلبية المجتمع تجاه كشف الجريمة، يؤديان إلى تزايد الجريمة بشكل بشع، يزيد من سلبية الناس وتنازلهم عن القيم الأخلاقية المميزة للمجتمعات العربية والإسلامية.

٥- الدعوة إلى الله والتأثير في الآخرين، أفضل الوسائل التي تحمي الإنسان من المعصية والفتنة، وتقربه إلى الله (أبو ذر يظل على إيمانه طيلة ثمانية عشرعاما، كان يدعو فيها قومه، رغم بعده عن الرسول ﷺ) .

يحيا الإنسان حياة لها معنى عندما يكون له هدف، وعلى قدر رقي الهدف تكون قيمة الإنسان عند الله وعند الناس، وعندما يكون محور الحياة هوالله، يحمي الإنسان نفسه من الفتنة والضلال حتى وإن كان بعيدا عن أصحابه وأهله، وأبو ذر رغم أنه ترك الرسول ﷺ ثمانية عشر عاما ليكون مع قبيلته غفار، لم ينس القضية؛ لأنه جعل الله محور حياته، وجعل هدفه الدعوة إلى الله، وهو هدف لا ينتهي وليس له آخر، والنجاح فيه يشعر صاحبه بالسمو والعزة والقرب من الله والثقة بالنفس والقدرة على التأثير فيمن حوله وتغييرهم؛ لذا.. فإن الدعوة إلى الله تعد من أكثر الوسائل التي تحمي الإنسان من المعصية والفتنة، ومن أفضل الوسائل التي توثق الصلة بالله، مهما بلغ المجتمع من سوء.

٦- استغلال السلطة من أجل الثراء أحد الأسباب القوية التي تؤدي إلى انهيار الأمم (أبو ذر يخشى أن يتسلل شبح الدنيا إلى من تولوا الحكم) .

حارب الإسلام بشدة استغلال السلطة في الوصول إلى الثراء وجمع الأموال، وحرص تماما على عدم زواج السلطة بالمال، حتى لا يترك المسئول هموم شعبه لينصرف إلى مصالحه وزيادة ثرواته، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أكثر الخلفاء الذين شددوا على هذا الأمر، فكان يراقب المسؤولين رقابة مالية صارمة، جعلت عهده رمزا للعدل، واتسمت دولته بالقوة والتماسك والفتوحات المتعددة.

وفي النظم الديكتاتورية، يكثر تزاوج السلطة بالمال، فتضيع مصالح الشعوب، وتسقط هيبة المسئولين والدولة.

وليس معنى اعتراض أبي ذر أن الصحابة قد تورطوا في ذلك، إلا أن أبا ذر كان يخشى عليهم دائما من الوقوع في هذا الخطأ، فكان دائم المراقبة لهم.

* * *

obeikandl.com